(١)

الله رحمته ونعمته وعظمته في قربه وبعده

حديث ألقي بنادي إدارة قضايا الحكومة
٣٠ رجب ١٣٧٤ هـ - ٢٤ مارس ١٩٥٥ م

اللهم إنك أنت أنت. كما تعلم. اللهم أحي برحمتك قلوبنا، وأنر بحكمتك عقولنا، وزكي بهديك نفوسنا، اللهم تولنا فيما نعلم وما لا نعلم وما أنت به أعلم من أمرنا. اللهم أقم بك فيك جوارحنا ثناء لك فيك، ولجوءا إليك، واستعانة بك، وتوكلا عليك، إنك أنت مولانا ومحيانا، وأنت على كل شيء قدير.

سيدي الرئيس.. أساتذتي.. إخواني..

إني لأحمد الله إليكم أن هيأتم لي هذا المجلس الكريم منكم، لأتحدث إلى نفسي، في حديثي إليكم، مستمدا من نور قلوبكم، ومن صادق رغبتكم في الاجتماع على الله في أنفسكم.

وإني إذ أقول إني أتحدث إلى نفسي بلسانكم أعني ما أقوله، فما اجتمع جمع في الله ذاكرين له مثنين عليه متواصين فيه، طالبين المعرفة عنه، والمعرفة به، إلا كان هو معهم وجمعهم، وكان فيهم المتحدث والسامع، وكان لهم الممد والمعين والراحم.

وإني إذ أتحدث عن الله، فإنما أتحدث عن رحمته وآلائه، وعظمته في قربه ونعمائه.. فإنه تعالى كما يعلم، لا نحصي ثناء عليه ولا نحيط علما به. وقد أعلمنا على لسان رسله وعن طريق كتبه أنه معنا حيثما كنا. وأنه قائم على كل نفس منا. وأنه هو الآخذ بنواصينا، وأنه هو المتولي لأمورنا والراحم لنا، والقريب منا. وينبهنا إلى ذلك في قوله {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[1] منبها إلى حيث نراه ونجده.

فإننا إذ نتحدث عنه تعالى تتجول عقولنا بالفكر فيه وهو منها قريب. وتستشرف نفوسنا لطلب معرفته وهو معروف لنا بقيامه علينا في قيامنا. معروف لنا عن طريق الإدراك في هذا القيام والإحساس به.

فالإنسان يا إخواني أشرف مخلوقات الله، الغيبية والظاهرة. والإنسان يا إخواني هو الكائن المتميز في مملكة الله وفي ملكوته. وهو الكائن الذي أوجده بعظمته وبقدرته ليتعارف إليه وليعرف عنده. وليعرف به إلى ما سواه...

فهو الكينونة الحادثة على مثال من قديم من أمرها. فهو ذكر الله المحدث على مثال من ذكر الله القديم به. وهو كلمة الله المرسلة في وجوده تعريفا عنه، وتعارفًا إليه، ومعرفة به في قيامها بذاتها من سر قيامها عبدا له.

فإذا قلنا الله وذكرنا هذا اللفظ فإنه يتكيف في أفئدتنا على معان مختلفة بقدر إدراكنا فيه، وإدراكنا عنه، وتنزيهنا له.

هذا اللفظ الكريم الذي يطيب ترديده ويحلو الحديث عنه، وتقصر العقول عن الفهم فيه والإدراك له لفظ كريم جليل في ذاته عظيم في أسراره. هذا اللفظ الذي نقوم بقيامه، ونحيا من معانيه، وننعم بمغانيه، ويهيئنا به لمعرفته قياما به قائما علينا، وقائما بنا، وقائما فينا...

هذا اللفظ يا سادة - نردده كثيرا ويجب أن نتأمله في ترديده، ونجعل هذا الترديد صادرا من أعماقنا محبة له واتحادا به وتوحيدا له فنفكر به فيه. تفكيرنا فيه وتأملنا في آلائه وفي عظمته، وفي قربه منا، هذا هو الدين في جوهره. وهذا هو الذكر في مخبره.

فليس ترديد اللفظ بلا وعي لمعناه أو تفكير في آلاء الله معنا ذكرا لله. ولكن تأملنا فيما هو بنا، وفيما هو حولنا، وفيما نقوم فيه من حياة، وردّ هذه الحياة إلى أصولها، والتفكير في حكمة الله فيها، وفي عظمة الله معها مقترنة بما يبرز في كل لمحة وفي كل وقت من آياته ظاهرة لنا في حياتنا، وفي أنفسنا وفيما هو حولنا.

هذا هو الدين إن طلبناه. وهذا ما يرشدنا إليه رسول الله عليه الصلوات، وهو يقول (تفكر ساعة خير من عبادة عام أو خير من عبادة سبعين عام)[٢]. فليس للمناسك مرتبة متقدمة في أسس الدين. ولا تأخذ وضعها بين أسسه إلا بجوهرها لا بأشكالها. فالعبادة بالفكر هي التي تهيىء النفس للزكاة والعقل للنور وتهيئ القلب للحياة.

وإننا إذ نذكر الله ونفكر فيه ونتأمل في حقيقة الأمر فإنما نتأمل في حياتنا وفي وجودنا وفي علة وجودنا وحكمة هذا الوجود وفي سره. فإن نحن فعلنا ذلك وفعلنا بما جاء به هدي الله مع رسله وهم في الله جميعا لا يفترقون وباجتماعهم يتكامل هديهم وتبرز حكمة ربهم، وتأملنا في كتب الله وكلها يهدف

إلى هدف واحد لا يختلف، حققنا علة خلقنا وحكمة إيجاد الموجد لنا بمحاولة الفهم في أسرار حياتنا، وفي تطور نفوسنا.

وإن الإنسان لو تأمل في نفسه يا سادة، لعجز عن إدراك نفسه في حقيقة الأمر، وسيبقى عاجزا عن إدراكه لها في حدود ما يوجد بها. وإن الله سبحانه وتعالى في مَنِّه علينا بالإيجاد لأنفسنا بعارية نفسه معنا مَنَّ علينا أيضا بالهدي منها في قوله {أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}[٣] فإذا تأملنا في قوله، {أعطي كل شيء خلقه} تبين أن الله سبحانه وتعالى أوجدنا كائنات مختارة ممكنة، أوجد فيها كفايتها من أسرار قدرته ومن سلطان حكمته. وهيأ لنا فينا أسباب التطور فيه بجهاز وجودنا من ذات عوالمه، بمحاولة تطهير أنفسنا من أدرانها، وتجديدها بالحق تخلصا من موصوف الخلق عن طريق فعلها بذكره.

فلنتأمل في قوله {أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى}[٤] ...

فالإنسان لو تأمل في نفسه وفي حياته هذه التي يحياها، وهو يعلم بدأها كما يعلم منتهاها، وقد تواجدت له في هذه الحياة صورة مجسمة متكاثرة في مظهر حيوات متعددة في حياة، تأمل كيف أنه تطور من علقة إلى مضغة إلى طفل إلى شاب يافع إلى رجل قادر إلى شيخ حليم ورع واع، وتأمل ما يمر عليه في حيواته هذه على قصرها كجزء في مدى حياته الحقيقية أوفي مدى حيواته القديمة والحاضرة والمستقبلة. وأقول حيواته لأننا كلنا والحمد لله مؤمنون بالتبليغ، والتبليغ يرشدنا أن لنا حياة روحية، قبل حياتنا الذاتية، وأن لنا حياة روحية بعد حياتنا المادية، وأن لنا حياة مادية بعثا من حياتنا الروحية، وأن حيواتنا القديمة والحاضرة والمستقبلة، حلقات متصلة في الحياة الكلية لوجودنا.. لوجودنا الحي من حياة الله الأبدية الأزلية، القائمة السرمدية. وقد أمدنا بالحياة من حياته، وأمدنا بالحكمة من حكمته، وأمدنا بالقيام من قيامه، وأمدنا بالوجود من وجوده، وهيأ لنا أسباب الصلة به بإدراكنا للحياة في إدراك حياتنا في أنفسنا، فسبحاننا من سبحانه بكرمه وجوده، وهو القائل في حديثه القدسي على لسان نبيه (ما ظهرت في شيء مثل ظهوري في الإنسان)[٥] وهو إذ يشير إلى هذا التكريم يبرز القدسي في الإنسان مضافا إلى نفسه في سر نفوسنا منه، موصولة به، مهيأة لمعرفته بحكمته، قادرة على الرجوع إليه بنعمائه وهديه. ويلفتنا إلى هذا الأمر الجليل الخطير في أنفسنا في قوله {ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير}[٦]، {فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد}[٧]...

وهو إذ يخاطب عبده ونبيه ورسوله بهذا الخطاب إنما يخاطبنا جميعا به في قوله {لكم في رسول الله أسوة حسنة}[٨]، وفي قوله له وهو ينبهنا في هذا القول هو { الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}[٩].

فنحن إذ نتحدث عن الله متأملين متفكرين يجب أن نتجاوب في هذا التفكير وفي هذا الحديث، متحررين بعض الوقت وبعض الشيء من قيود ما توارثنا في العقيدة حتى يمكن لنا أن نصل إلى فهم كريم في الله...

الله سبحانه وتعالى.. لا إنكار على وجوده، ولا جحود لنا في أمر جوده. ولا خلاف بيننا على وحدانيته أيا ما كنا وعلى أي مذهب أو مشرب أو دين ذكرنا. فإلهنا في الحقيقة واحد وربنا في الحقيقة واحد. نحن على اتفاق لفظي فيه ولكنا على صدق أو خدعة في طلبه أو توهمه.

والذي يخدعنا فيه ويبعدنا عنه ظلمة نفوسنا بأعمالنا في حقيقة الأمر، وتوارثنا لمعان تفصل بيننا وبينه معنا، وتباعد بيننا وبين الصلة به والإدراك له فينا، وهو في حقيقة الأمر منا قريب ولنا مجيب.

فلنتأمل في قوله {وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون}[١٠]...

فنحن إذ نطلبه يحول بيننا وبين تحقيق هذا الطلب حوائل من سوء الفهم وسوء الإدراك، فبأي أسلوب نطلبه؟ إننا نريد أن نتأمله أمرا بعيدا عنا غير قائم فينا، غير قريب منا، غير قائم بنا. فنحن إذ نطلبه على هذه الصورة نباعد بيننا وبينه فى حقيقه الأمر. ولكن إذا طلبناه فى قلوبنا - وهي محل إفاضته ومحل التعارف إليه - وتأملنا في المثل المضروبة منه تعالى لنا - ولسنا إلا مثالا لهذه المثل المضروبة - في صور عباده من كلماته وأنبيائه تلاقينا معه على الصراط المستقيم.

فلنتأمل في قوله لمحمد عليه الصلاة والسلام ومعنى القول {قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها}[١١]، ولنتأمل في تأمل إبراهيم عليه السلام وهو يفكر فيتحسسه في مظاهره الكونية من الشمس والقمر والنجوم، فلا يجد في هذا غنية مشبعة لما في غريزته من غريزة الطلب له وفطرة الاجتماع عليه. وكلنا في هذا المعنى إبراهيم، وكلنا في هذا المعنى محمد. فلم تشبع الشمس ولا البيت الحرام من مسجد مكة شوق أحدهما إليه، أو يجد بأيهما غنية فيما يطلب.

فنحن إذ نقول لا إله إلا الله نردد هذا اللفظ بلا تأمل عميق فيه، ونتوارث معنى في الوحدانية لا يهيئ لنا أسباب لا إله إلا الله. ولو تأملنا في حديث رسول الله وهو يقول على لسان الله (لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن عذابي)[١٢]، وهذا الحديث القدسي يؤيده قوله تعالى في كتابه {واذكر ربك في نفسك}.. كيف تذكره بعيدا عنك؟ {واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين}[١٣]. ولنتأمل في قوله {في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه}[١٤]، وهو يشير في هذا إلى قلوب العباد عامرة به مدركة لمعاني الحياة فيها من

حياته تعالى. ولنتأمل وهو يشير إلى صلة عبدين فيه.. محمد عليه السلام في شدة ضعفه وهو على الأرض بين أهلها مع رفيق أعلى شديد القوى في السماء، وهو يقول {علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دني فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى إلى عبده ما أوحى. ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى}[١٥]؟ إن شديد القوى لم يوصف بمقام العبودية له. ووصف به صاحب الذلة له والضعف معه. والعبودية ألصق وصف بالحقائق الأقرب إلى الله.

إن الله سبحانه وتعالى قريب منا مجيب لنا. فإذا قلنا أين الله؟ ومتى الله؟ وما الله؟ وكيف الله؟ ولِمَ الله؟ فلنتأمل في هذا التساؤل ونتجاوب عنه في أنفسنا لأنفسنا. فإن الله قد أوجد في غرائزنا حكمة طلبه، وغريزة طلبه، وغريزة الشوق إليه، وغريزة الصلة به لأننا في الحق وفي الأمر الواقع موصولون به قائمون به فعلا. وإن الذي نخشى أن نفقده بغفلتنا في تطورنا بحقيقة هذه الصلة إنما هو هذه الصلة نفسها فنهلك ولا نربح. وقد كان بنا قائم. به صنعنا أنفسنا بعملنا بعيدة عنه غريبة علينا، فتركنا لفعلنا وما هو إلا فعله بنا.

إن الله يُعرف بعظمته في هذه الحياة المحجوبة، فيأمر الحياة العارفة التي أسفر لها بوجهه أن تقدسه في الحياة المحجوبة لأنه أعد هذه الحياة المحجوبة لأمر، ومطورها ومهيؤها به لمعرفة أسمى وأرقى من معارف هذه الحياة الظاهرة لها، العالمة ببعض الأمور عنه إبرازا منه لها لمجال من لانهائيته في طريقه للظهور...

لأننا في هذه الحياة المسربلة بالحجاب وهو يقول لنا إنه قائم على كل نفس، ولم يجعل لنفس منا على هذه النفوس سلطانا، بل جعل سلطانه قائما على كل نفس بما كسبت مشيرا إلى أن هذه النفوس المحدثة هي ذكر له محدث، ضرب لها مثلا من ذكر محدث من أنفسهم أكرمه بينها في كلماته، وكتبه، أو أنبيائه. فلنتأمله وهو يقول {ضرب ابن مريم مثلا}[١٦]، {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم}[١٧]. ضرب ابن مريم مثلا لنا جميعا. فإذا كان هو عليه السلام كلمة من الله مطهرة، وعلما على معرفته وعلى نعمائه على عباده ظاهرين بنعمة الله، أكرمه الله معرفا عنه روحا من روحه وكلمة من كلماته، فإنه في هذا مثل لنا جميعا نحيا على مثاله إن شئنا، ويعدنا الله بعظمة قدرته وبنعمته وبعظمة عطائه وبقربه أن يهيىء لنا أسباب التواجد به إن طلبنا، حتى تستقيم لنا طريق التعارف إليه بقيامنا فيما هو قائم فيه من روح الله، ومن العلمية عليه كلمات له دالة عليه، متعرفة إليه، متشوقة لطلبه بغريزة الحياة، وروح الله فيها. وهو اذ قدم لنا مثالا آخر من جماع الكلمات المتكاثر بالكتب والأمهات فى محمد علية الصلوات، فلم يحرمنا بعظمة جوده نعمة أن نكون على مثال من عطاء الله له، على ما أبرز فينا من

حسن الخلق المضروب فيه. وهذا ما يهدينا اليه رسول الله بلسان الحق وهو يقول: تخلقوا بأخلاق الله.. إن لله ثلاثمائة خلق من تخلق بإحداها دخل الجنة.

إذا تخلقنا بأخلاق الله! وكيف نتخلق بأخلاق الله؟ وما معنى التخلق بأخلاق الله؟ وهل تَخَلَّق محمد بأخلاق الله؟ ...

إن من خُلُق الله سبحانه وتعالي كما نعلم أنه حليم وأنه عليم وأنه خبير. ومن خلقه سبحانه وتعالي أنه قادر وأنه خالق. فإذا تخلقنا بأخلاق الله الخالق بعظمة قدرته فيما وهبنا من قدرة من قدرته في حدود إمكانياتنا، مستمدة من إحاطة إمكانياته فَوَجَّهنا القدرة المودعة فينا والمؤتمنين عليها وهي أمانته فينا، وجهناها لذواتنا ونفوسنا، وهو الذي أعطى كل شيء خلقه فزكينا أنفسنا فيه كما هدانا، وتوجهنا إلى الوجهة التي وجهنا إليها برحمة هديه لتطورنا فيه تطورا يخرجنا من ظلمات أنفسنا إلى نور معرفته قائمة بنا.

وإذا قلت إلى نور معرفته وهو الذي يعرِّف عن نفسه جل وعلا لمن يعرف بكشف الغطاء عنه لنفسه قائما به، مقربا تعريفه بقوله {الله نور السموات والأرض}[١٨]، وهو يضرب لنا مثلا لهذا النور بمشكاة فيها مصباح يوقد من شجرة مباركة هي في الحقيقة شجرة الجنس البشري القديم بقدم الله، وقد جعل الله من مفرداته مثلا لنوره في وحدة من نور الكون للسموات والأرض.. فإذا قلت النور فإنما أعني هذا اللفظ بمعناه من الطبيعة، ومن الحقيقة بما استطعنا أن ندرك في عصرنا الراهن من أسرار عن الطبيعة كانت قبل هذا العصر خفية على الناس من أسرار الكون.

فإن الله سبحانه وتعالى وهو يقول { النور الذي أنزل معه }[١٩]، وهو يقول {ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء}[٢٠]، وهو الذي يقول {نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس}[٢١]...

فأوانينا يا إخواني هي مشكاة الله المنيرة بنور الحياة، والقابلة في حقيقة أمرها لإفاضات النور الإلهي والاستزادة منه. فهي الأواني القابلة لاستقبال نور الله المفاض دائما من حضرة قدسه وحضرة إحاطته، ومن وجوده المطلق الذي لا يحيط به محيط ولا يدركه مدرك، إلا بقدر ما يتفضل سبحانه وتعالى على هذه القلوب من أنوار تهيئ لها أسباب التعارف إليه قائما عليها، فاعلا بها، كاشفا حجب الغفلة من أنفسنا بإفاضة النور مشرقا في ظلمات هذه النفوس حتى نشرق بنور وجوده، ونور معرفته ومعارفه...

فقيامنا -إن بدا لنا قيام- ظُلماني في مظهره إلا أنه قيام نوراني في جوهره. فإن نحن طلبنا الله نور السموات والأرض في نورانية حقائقنا، وإنارة طبائعنا بإفاضة نوره على نور حياتنا متعرضين إلى نعمائه، ورسول الله يقول لنا (إن لله في أيام دهركم لنفحات فتعرضوا لها)[٢٢]، فإن نحن تعرضنا لنفحات الله وهي منا دوما قريبة، وإنها قديمة بقدمه، قائمة بقانون وجوده فى كل وقت، وفي كل عصر، وفي كل مكان، وفي كل زمان، وفي كل حياة نحياها.. إن نحن هكذا فعلنا لوجدنا الله قريبا كما وصف نفسه بالإجابة، ولوجدناه غفورا كما وصف نفسه بالمغفرة، ولوجدناه واحدا أحدا صمدانيا ماحيا لوجودنا في عظمة وجوده، ظاهرا لنا فينا معلما ولنا هاديا، آخذا بنواصينا، مقيما لنا كلمة منه قائمة مشرقة بنوره وبمعرفته، وبالحديث عنه، وبطلب المزيد من نوره ومن رحمته ومن نعمته.

فلنتأمله وهو يقول {من الله ذي المعارج. تعرج الملائكة والروح إليه}[٢٣] فصاحب المعارج والعارج بالملائكة والروح تعالى سبحانه عن المكان، وعن الزمان، وعن الكيفية. فهو إذ يعرج بنا إنما يعرج بنا في تطوير أنفسنا فيه من معراج إلى معراج حيث نحن لا مكان، وحيث نحيا لا حيوان، وحيث نوجد لا زمان.

فهو سبحانه وتعالى إن أخرجنا باصطفائه، وبإحياء قلوبنا بنوره وهي حية بحكمة إيجادها، لأخرجنا من دائرة العدم في عالم العدم في صورة الحياة من عالمنا-الذي يأخذ صورة التوقيت أو العدم- إلى حياة دانية قطوفها، مذللة سبلها، مخرجا لنا بينه وبيننا في أعماق مداركنا، وفي أعماق حياتنا، مطمئناً لنا بأن حياتنا فيه قائمة متصلة، مُدرِكا لنا بأننا بذكره لا نخيب ولا نفنى، بل تجري علينا نواميس الحياة الخالدة بما خلق لنا من نظام الغيبة بالموت والظهور بالحياة)المولد(...

كلنا ينشد الحياة، وكلنا يخشى الموت. وهو يقول لنا خلق لنا الموت والحياة ليبلونا، فهو إذ يشير لنا أن الموت مخلوق لنا لاختبارنا فهو أمر عارض على حياة موجودة فعلا، فإذا نحن حققنا له حكمة خلقه فينا وهو الذي خلقنا لعبوديته، وما عبوديته في حقيقة الأمر إلا تمهيد هذه الأواني العابدة له، أي المعبِّدة لأوانيها لحلول أنواره ولإفاضة معارفه وحكمته وأسراره ...

إن عبَّدنا أنفسَنا وهو مُعبِّدها بحكمة خلقها للتعارف إليه، وهو إذ يسمينا الإنسان وهذا اللفظ في ذاته يحمل معنى حكمة خلقنا من معنى (أُنسان).. أُنس وأُنس. أُنسنا به ربا عظيما كريما خالقا مدانيا، وأنه بنا معروفا لنا إذ يفاخر بنا على سائر مخلوقاته بما أودع فينا من سر طلبه على حجابنا، ومن سر معرفته عندنا معروفا مع هذا الحجاب معرفة أرقى وأسمى في ذاتها من معارف عوالم هو مسفر لها بقربه، وبنعمائه، وبجلائه، وبنوره. وما بين الأُنس متصلا والأُنس محجوبا تقوم وحدانية (الإنسان) عارفا معروفا.

فأُنسان هو أُنس العبد بربه، وأُنس الرب بعبده، و(إنسان) إنس في قيوميته، وإنس في قيامه هو إنسان في وجوده. وإذ تحدثنا عن لفظ (إنسان) أو (أُنسان) في معناهما نشير إلى لفظ الله في معناه من حيث اللغة. لو تأملنا هذا اللفظ في الواقع وجدناه يدل على مراد الله فيه لنا بترديده. هذا اللفظ يتكون من ثلاث مقاطع (ال) وهي أداة التعريف، و (لا) وهي حرف نفي و (هو) وهو أول الأسماء الحسنى {هو الله الحي}، وإذا تأملنا إلى ما يعرفنا به الفقه تعريفا لهذا اللفظ نجدهم يقولون هو اسم علم دل على الذات الأقدس.

ال ـ لا ـ هو. هذا العلم الذي تسمى بهذا الاسم خرجت معرفته بالله عنده وعند عارفه من كنزية احتجابه وغيبته إلى عظمته معروفا في صاحب هذه العلمية عليه. فهذا العلم في جوهره أقداسا ما زال في كنزيته وغيبته، وفي حقيقة أمره هو إنسان الله. هو نور الله القدسي من نور إحاطته. هو قبضة نوره القدسية المتعارفة في ذاتها إلى عين معناها فيها منها من الإنسان، أو محدث ذكره من نور الله الموجود المطلق. إنه عبد الله والتي منها خلق وجودا عظيما تحجب بهذا النور عن موجوداته، كما يشير عليه الصلاة والسلام إن لله في عظمته حجب من نور وظلمة، لو أنه تكشف لهذه الأكوان بغير هذه الحجب من نور وظلمة لاحترق الكون في علوياته وسفلياته من سبحات وجهه الكريم.

فالله المعبود والأقدس من الشهود لا يشير إليه لفظ، لأننا لو تأملنا في اللفظ لوجدنا أن هذا اللفظ كاسم علم لا بد أن يتواجد بترديده كاسم محدود لمسمى في الخاطر، ونحن نقول إن الاسم يدل على المسمى، ويحدد الاسم طبعا مسماه. فكيف يكون صالحا للتعريف عن الموجود اللانهائي؟

فهذا الاسم إنما يشير إلى ما نُعبِّد أنفسنا له، كما نُدرك بتأملنا في معبودنا الذي نصفه بجميع المحامد.

فإننا إذ نردد لفظ الله فإنما يجول في خاطرنا هذا الخالق العظيم، والرب الكريم، والإله المقدس والموجود غير المشارك في عظمته، وفي قدرته، وفي نعمائه، والذي عرفناه من إدراك وجودنا، ومن غريزة طلبنا للاتصال والتعارف بموجودنا القديم الذي نصلح بتعبيد أنفسنا له للعلمية عليه معلوما لنا.

فإذا قلنا ال لا هو فإنما نعني القيام المدرك في ذاته بوجود الحق فيه مدركا عنده قائما به، يدرِّك به عند غيره على ما يدرك به عنده.

ونحن إذ نقول لا إله إلا الله وجب علينا أيضا التأمل والتحليل للفظ إله، فهذا اللفظ أيضا بما يحمل من معناه في اللغة يتكون من مقطعين: إلى.. هو.. وبذلك كان لفظ الجلالة لا إلى هو إلا ال لا هو. فإذا تأملنا في أنفسنا طالبين، وذكرنا الله معنا موجودا مؤمنين، ونسينا في الله أنفسنا منفصلة عن وحدانيته، وهو الذي يقول لنا {واذكر ربك إذا نسيت}[٢٤]، كيف أذكر ربي إذا نسيت؟ كيف أذكر

وأنا ناسي؟ ولكنه سبحانه يوجهنا أنه إذا نسينا أنفسنا قادرة بما أودع فيها من قدرته، ورددنا ما فيها من قدرة إلى عظمة قدرته، وذكرنا أنفسنا موجودة بوجوده ولم نذكرها منفصلة عن وجوده، ولا عن نعمة جوده.. إذا نسينا انفصال هذه الصفات وهذه الكينونة عن القيام له سبحانه وتعالى.. إن فعلنا ذلك كنا له ذاكرين. فإن نحن ذكرناه على غير هذه الصورة كنا له غير ذاكرين، بل بأنفسنا مسبحين وله مباعدين، وهذا معنى واذكر ربك إذا نسيت أي إذا نفسك أنسيت. ولنتأمل في قوله تعالى {ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون. لاهية قلوبهم}[٢٥]، وقوله {وأقم الصلاة لذكري}[٢٦].

فالإنسان في حقيقة أمره محل نعم الله، ونعمة الله عليه جليلة وعظيمة يعجز عن إدراكها، وعن فهمها. فإذا هو تأمل فهو ذكر لله سبحانه وتعالى، فإذا ذكر الله كثيرا فاستيقظ قلبه في الله بذكره، وحيا بذكره، كان هو في ذاته ذكرا محدثا في الله، وهذا معنى كلمة الله وروح منه - الذي ضرب مثلا لأمة محمد.

فإن نحن ذكرنا الله ونحن نسأله أن يجعلنا جميعا من المردودين إلى أحضانه ربا كريما، قريبا، مجيبا، منعما.. إن نحن هكذا فعلنا دخلنا في حصن لا إله إلا الله. وإن نحن دخلنا في هذا الحصن الكريم القريب الداني بنعمته أمنا من غضبته، وأمنا من عذابه، ورحمنا برحمته، ودنت منا قطوف الحياة، وقطوف النعمة، وهو يقول {قطوفها دانية}[٢٧]، {وجنى الجنتين دان}[٢٨].

فنعمته في الحقيقة مدانية فلنتأمله وهو يقول {ولمن خاف مقام ربه جنتان}[٢٩]، فنحن إن استيقظنا في الله سبحانه وتعالى حوَّل لنا هذه الحياة وهذه الدار إلى جنة قطوفها دانية من نعمة معرفته، وانتقل بنا في حيواتنا من جنة إلى جنة. وإن نحن غفلنا عنه تعالى كان في هذا عذابنا، وما عذابنا إلا بعدنا عن الحياة بذكره ومن التعرض لنعمة الحياة به في حيواتنا قائمة. وبذلك نسلك سبيل الهلكة. وبذلك كانت هذه الدار- كما يقول الرسول- أول أبواب جهنم لأهل الغفلة عن هذا المعنى. وبذلك ينتقل الناس فيها من غفلة إلى غفلة يبعث فيها المرء على ما مات عليه. كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها. وإن هكذا واصلوا انتقلوا من دار إلى أسوأ منها حتى يصل الغافل النار الكبرى، ثم لا يموت فيها ولا يحيا لأنه سلك سبيل الهلكة ولم يسلك سبيل الحياة.

فالحياة في الله سبحانه وتعالى قائمة مدانية ما استحيينا الله في حياتنا، وما اتقينا الله في أعمالنا، وما ذكرنا الله في أنفسنا، وما قمنا بالله في حياتنا وقيامنا.

{وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله}[٣٠] من هدي الإحاطة

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الذاريات - ٢١

٢ حديث شريف: "تفكُّر ساعة خيرٌ من عبادةِ ستين سنة." تخريج الإحياء للعراقي، كما أخرجه أبو الشيخ في ((العظمة)) وابن الجوزي في ((الموضوعات)) باختلاف يسير.

٣ سورة طه - ٥٠

٤ سورة القيامة - ٣٦-٣٩

٥ مقولة صوفية تبرز معنى أن الإنسان خليفة الله.

٦ سورة الملك -٤

٧ سورة ق - ٢٢

٨ سورة الأحزاب - ٢١

٩ سورة الشعراء - ٢١٨:٢١٩

١٠ سورة البقرة - ١٨٦.

١١ سورة البقرة - ١٤٤

١٢ حديث قدسي رواه الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، المحدث العراقي، بإسناد ضعيف، االمصدر: تخريج الإحياء للعراقي. كما جاء بلفظ: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: سمعت جبرئيل عليه السلام يقول: سمعت الله عز وجل يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني أمن (من) عذابي." بحار الأنوار، المكتبة الشيعية.

١٣ الأعراف - ٢٠٥.

١٤ سورة النور - ٣٦

١٥ سورة النجم - ١٢:٥

١٦ سورة الزخرف - ٥٧

١٧ سورة آل عمران - ٥٩

١٨ سورة النور - ٣٥

١٩ سورة الأعراف - ١٥٧

٢٠ سورة الشورى - ٥٢

٢١ سورة النور - ٣٥

٢٢ حديث شريف: "إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها"، رواه الطبراني في "الكبير" وذكره الغزالي في الإحياء.

٢٣ سورة المعارج – ٣،٤

٢٤ سورة الكهف - ٢٤

٢٥ سورة الأنبياء - ٢-٣

٢٦ سورة طه - ١٤.

٢٧ سورة الحاقة - ٢٣
٢٨ سورة الرحمن - ٥٤
٢٩ سورة الرحمن -٤٦
٣٠ سورة الزخرف - ٨٤